الفصل السادس

مميزات التخطيط المعمارى فى العصر الفاطمى

١ – تخطيط المساجد وبلاطة المحراب.

٢ – قبة البهو و «العَنَزَة».

٣ – المداخل الرئيسية والبوابات – المشاهد – تعدد المحاريب.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

مميزات التخطيط المعمارى فى العصر الفاطمى

١

تخطيط المساجد — بلاطة المحراب

ظلت مساجد القاهرة فى العصر الفاطمى محتفظة بنظم المساجد الجامعة الأولى، ولها — مثلها — بيوت مسقوفة للصلاة، تمتد أساكيبها موازية لجدار القبلة، وتنقسم إلى بلاطات. وفيها أبيناء مكشوفة، وتحيط بكل منها مجنبات من رواق أو أكثر[١]. ويلاحظ أن خطوط البلاطات فى مسجدى الأزهر والحاكم ليست متوازية تمامًا مثل توازى خطوط الأساكيب؛ الشكلان (٤) و (٧)[٢]. ولكن البناة راعَوْا فى بقية المساجد ألا يظهر هذا التباين، وأن تتوازى البلاطات فى بيوت الصلاة مثل توازى الأساكيب.

وبدأت مساحات المساجد تصغر فى العصر الفاطمى، وإذا كانت مساحة مسجد الحاكم تقارب مساحة مسجد ابن طولون، فإن مسجد الأزهر لا يكاد يبلغ نصف مساحة مسجد عمرو، أما نسبة مساحة مسجد الصالح طلائع إلى مسجد عمرو فهى نسبة واحدة إلى عشرة. وتعتبر مساجد الجيوشى والأقمر والسيدة رقية مساجد صغيرة جدًا، إذا قورنت بمسجدى عمرو أو ابن طولون. والسبب فى تصغير المساجد هو كثرتها وتعدد المساجد الجامعة. فلم تعد صلاة الجمعة مقصورة على مسجد واحد فى المدينة. وأصبحت المساجد القائمة تستوعب المصلين، فلم ير الأمراء بأسا من إقامة مساجد محدودة المساحة، كأنها خصصت للمصلين فى حى من أحياء القاهرة، أو فئة منهم.

وكانت المساجد الجامعة فى العصور الأولى تنحصر فى حدود مربعة أو شبيهة بالمربع، واحتفظ مسجدا الأزهر والحاكم بهذا التقليد. ثم بدأت حدود المساجد تخضع لمقتضيات العمران، وتتقيد

---

(١) انظر ما كتب عن تخطيط المساجد الجامعة فى «المدخل».

(٢) انظر ما كتب فى هذا الشأن فيما سبق.

بالمكان المخصص لبنائها. وهكذا نجد أن حدود مسجد الأقمر الخارجية، شكل (١٣)، قد التزمت حدود الشوارع المحيطة به. وبالرغم من ذلك فإنه روعى أن يكون تخطيط هذا المسجد فى الداخل منتظمًا، وأن يكون إطاره مستطيلاً، وملئ الفراغ الناتج من عدم انتظام الحدود الخارجية مع هذا المستطيل بقاعات نظمت فى مؤخر المسجد، وطاقات جوفت فى جداره الشرقى.

وأضيفت إلى بعض المساجد قاعات، مثل مسجدى الجيوشى والصالح طلائع، وذلك لأن هذه المساجد أعدت لتضم أضرحة. ولم تكن بالمساجد الأولى قاعات شبيهة بهذه، ولكنه كان ببعضها مقاصير، مثل تلك التى تشاهد فى مسجدى القيروان والزيتونة[١].

ويلاحظ فى تخطيط المساجد الفاطمية اتساع أسكوب المحراب وبلاطته. ويظهر اتساع أسكوب المحراب بوضوح فى مساجد الحاكم والأقمر والصالح طلائع، الأشكال (٧) و (١٣) و (١٧)، كما يظهر اتساع بلاطة المحراب فى مساجد الأزهر (شكل ٤) والحاكم والصالح طلائع. أى إن أسكوب المحراب وبلاطته يتسعان معا فى كل من مسجدى الحاكم والصالح طلائع، وتتسع بلاطة المحراب دون أسكوبه فى مسجد الأزهر وحده[٢].

وقد سبق أن أشرت إلى اتساع أسكوب المحراب فى مسجدى عمرو وابن طولون، وأوضحت الحكمة فى هذا الاتساع[٣]. أما اتساع بلاطة المحراب فهى ظاهرة جديدة فى عناصر تخطيط المساجد بالقاهرة، وهى ظاهرة هامة يتعين شرحها وإيضاح أسبابها.

وقد أشار المستشرقون إلى هذه الظاهرة على أساس أنها بدعة فى تخطيط المساجد وأنها اشتقت من نظم الكنائس[٤]. وشبه (هوتكور) بلاطة المحراب فى مسجد الأزهر بفناء البازيليكيات المسيحية[٥]، أما (كريسويل) فشبهها بذراع الكنيسة[٦]، وقال: إنها فى هذا المسجد أقدم مثل معروف فى العمارة

---

(١) انظر الشكلان ٨٥ و ١٠٥من «المدخل».

(٢) ومع هذا فإنه يلاحظ أن أساكيب مسجد الأزهر تزيد اتساعًا، بصفة عامة، عن البلاطات إذ إن سعة الأسكوب فى المتوسط أربعة أمتار ونصف المتر وسعة البلاطة فى المتوسط أربعة أمتار فقط.

(٣) انظر «المدخل».

(٤) بحثت هذا الموضوع فيما يخص مسجدى القيروان والزيتونة فى كتاب «المسجد الجامع بالقيروان»، صفحة ٢٠ إلى ٣٥، وفى مقال «مسجد الزيتونة الجامع»، من صفحة ٧٥ إلى ٧٨ وأخص البحث فى هذا الفصل على اتساع بلاطة المحراب فى مساجد القاهرة.

(٥) كتب (هوتكور) فى صفحة ٢١٩ من الجزء الأول من كتاب «مساجد القاهرة» ما نصه:

"une nef perpendiculaire qui rappelled celle des basiliques chrétiennes".

وترجمة ذلك: «فناء عمودى يحيى ذكرى فناء البازيليكيات المسيحية».

(٦) انظر صفحات ٤٥ و ٥٥ و ٦١ و ٦٢ و ٢٨٩ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر».

الإسلامية[1]. وقد اختلف العالمان الأثريان فى هذا التشبيه، لأنهما أصرا على استعمال الاصطلاحات الكنائسية للتعبير عن عناصر المسجد ولم يحاولا استعمال اللفظ العربى لهذا العنصر، ولو أنهما استعملا لفظ البلاطة أو الأسكوب أو الرواق لما اختلط عليهما المدلول.

وكذلك شبه (مارسيه) بلاطة المحراب بفناء الكنيسة البازيليكية، بل إنه ذهب إلى القول بأن «المسجد مدين للكنيسة فى اتساع بلاط المحراب»[2]. وتبعه (لامبير)، وحذا حذوه، وادعى أن اتساع البلاطة الوسطى فى بعض المساجد، مثل قرطبة وتازا ومراكش وإشبيلية والرباط وفاس، قد جعل لمساجد المغرب والأندلس نظامًا خاصًا به، هو النظام «الصليبى»[3].

---

(١) وهذا ادعاء باطل لأن بلاطة المحراب فى مسجد القيروان أقدم عهدًا من نظيرتها فى الأزهر. ويفرق (كريسويل) بين بلاطة المحراب التى تخترقها عقود الأساكيب وتلك التى لا تجتازها عقود، وهى تفرقة شكلية، لأن تكوين بلاطة المحراب فى المسجد الأول، وهى التى تخترقها عقود، لا يختلف إطلاقًا، تخطيطًا وعمارة، عن تكوين بلاطة المحراب فى المسجد الثانى.

وكذلك يطلق (مارسيه) لفظ الذراع (transept) للتعبير عن أسكوب المحراب، وهو اللفظ نفسه الذى استخدمه (كريسويل) للدلالة على بلاطة المحراب. ومن هذا يتضح تخبط المستشرقين حين يصرون على مقارنة المسجد بالكنيسة. تنظر صفحة ١٨ من الجزء الأول من كتاب (مارسيه) «الفن الإسلامى فى المغرب والأندلس».

Marçais, Gcoge, *Manuel d'Art Musulman* – L'Architecture

وقد عاد (مارسيه) فى صفحة ١٢ من الطبعة الجديدة لهذا الكتاب الذى نشره تحت عنوان: «العمارة الإسلامية فى الغرب»: *L'Archita'ure Musulmane* d'Occident

فاستخدم اللفظين معًا، (nef-transept) للدلالة على أسكوب المحراب، وهكذا جمع بين اللفظ الذى استخدمه (هوتكور) فناء (nef) واللفظ الذى استخدمه (كريسويل) ذراع transept للتعبير عن غير ما قصدا التعبير عنه.

وقد حذا (فريد) شافعى حذو (كريسويل) فأطلق على بلاطة المحراب نفس اللفظ، ذراع transept فى صفحة ٧١ من مقال نشره باللغة الإنجليزية فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد الخامس عشر. الجزء الأول، مايو ١٩٥٣م وعنوانه «محراب فاطمى فى مسجد ابن طولون»:

An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun.

وجدير بالذكر أن لفظ (transept) معناه فى العمارة المسيحية «عنصر خارج عن فناء الصلاة فى الكنيسة»، فهو معماريًا تعبير لا يصح إطلاقه على عنصر داخل بيت الصلاة.

(٢) انظر صفحة ١٨ من الجزء الأول من كتاب (مارسيه) «الفن الإسلامى فى المغرب والأندلس» وصفحة ١٠ من كتابه «العمارة الإسلامية فى الغرب».

(٣) انظر صفحة ٢٨٢ من المقال الذى نشره (لامبير) فى سنة ١٩٤٩م بعنوان «المساجد الأسبانية فى المغرب»:

Lambert, Elie, *Les Mosquées du Type Andalou en Espagne et en Afrique du* Nord, Al-Andalus, vol. XIV, Madrid, 1949, pp. 273-289.

وانظر الرسم الذى نقلناه عنه لهذا النظام الصليبى المختلق فى صفحة ٢٨٩ من «المدخل».

والسبب الذى دفع المستشرقين إلى تشبيه بلاطة المحراب بفناء الكنائس أو ذراعها هو أنهم حسبوا أن هذه البلاطة هى أهم جزء فى بيت الصلاة وأنها محور هذا البيت والممر الرئيسى فيه[1]. أما أن بلاطة المحراب هى أهم جزء من أجزاء بيت الصلاة فهو ادعاء غير صحيح، ويكفى النظر إلى تخطيط أى مسجد من المساجد للرد عليه، إذ تبدو بلاطة المحراب فى هذا التخطيط جزءًا ثانويًا بالنسبة لأسكوب المحراب ولأساكيب بيت الصلاة التى تتركز فيها أهمية التخطيط. وأما أنها تعتبر محورًا للمسجد، فقد يبدو هذا صحيحًا على الورق بالنسبة للمساجد الفاطمية، ولكنه ليس صحيحًا بالنسبة لتخطيط المساجد عامة. وقد أوضحت فى موضع آخر أن محور المسجد — إن كان للمسجد محور بالإصطلاح المعروف — هو جدار القبلة[2]. وأما أن بلاطة المحراب هى المدخل الرئيسى لبيت الصلاة، فهو خطأ وقع المستشرقون فيه، وتبعهم بعض الكتاب العرب المعاصرين فى هذا الخطأ حين أطلقوا على بلاطة المحراب فى مسجد الأزهر لفظ «المجاز»، وهو تعبير غير سليم.

ليست بلاطة المحراب «ممرًا» لبيت الصلاة أو «مجازًا» فيه أو مدخل الشرف إليه. وسواء كانت أبواب المسجد مفتوحة فى جداريه الشرقى والغربى أم فى مؤخره، فإن غالبية المصلين يتخذون طريقهم إلى بيت الصلاة من جانبيه، لا من وسطه. وليس فى تقاليد الصلاة أن يجتاز الإمام بلاطة

---

(١) انظر صفحتا ٢٢٠ و ٢٢١ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية الأولى»، وفيهما يكتب ما نصه:

«The central aisle of mosque, when the arcades are perpendicular to the back wall»

(يقصد (كريسويل) بالجدار الخلفى جدار القبلة، فى حين أن جدار القبلة هو جدار المقدم لا المؤخر)

"(and the central arch of the arcades, when they are parallel to the back walls) are always «on the axis of the mihrab and lead the eye up to it".

(انظر صفحة ٢٩٨ من «المدخل»، وفيها تفنيد هذا الرأى).

"For this reason there is always an uneven number of aisles or arches 11, 13, 15, 17, 19 etc.

(انظر صفحة ٣٠٨ من «المدخل» للتأكد من خطأ هذا الإدعاء).

"for the same reason The central aisle or arch is almost wider. A wider central aisle, there "fore, needs no explanation".

وسنرى فى الصفحات التالية أن ادعاءات (كريسويل) واهية، وأن لكل عنصر معمارى وظيفة يجب البحث عن حكمتها وإيضاحها. لا فى المساجد فحسب بل فى أى بناء أو عمارة. ولم ترد هذه الفقرات فى كتاب (كريسويل) «مختصر العمارة الإسلامية الأولى»، المنشور بعد ١٨ سنة من نشر هذه النصوص، ولعله قد صرف النظر عن آرائه هذه، أو لم يعد يتمسك بها.

(٢) انظر «المدخل».

المحراب فى طريقه إلى القبلة، وقد ذكر المؤرخون أن الأئمة كانوا يسلكون طريقهم إليها من باب قريب منها ينفذ مباشرة إلى أسكوب المحراب. والأمثلة على ذلك عديدة توضحها الرسوم التخطيطية للمساجد فى العصور الأولى[١]. وقيل فى هذا الصدد إنه ربما استعمل معاوية بن أبى سفيان زيادا على البصرة، زاد فى المسجد زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج وقال: لا ينبغى للإمام أن يتخطى الناس (إلى المحراب)، فحول دار الإمارة من الدهناء إلى قبلة المسجد، فكان الإمام يخرج من باب الدار الذى فى حائط القبلة»[٢].

وليست بلاطة المحراب هى التى توجه وحدها نظر المصلين إلى المحراب، فقد وضع نظام المسجد بحيث يرى المحراب دون عائق ومباشرة من أكثر عدد من المواضع فى بيت الصلاة، ومن أى من بلاطاته وأساكيبه. ولولا قيام الأعمدة والدعامات فى هذا البيت لشوهد المحراب من كل موضع فيه. ولهذا كانت بلاطة المحراب فى المساجد الأولى بلاطة لا تتميز عن غيرها من البلاطات، تخطيطاً وعمارة وزخرفة. وكان أسكوب المحراب، على العكس، هو الأسكوب المميّز فى بيت الصلاة. ولكن بلاطة المحراب تميزت فيما بعد، وإن لم تتغير وظيفتها الدينية أو تتميز.

بنى المستشرقون الذين أشرت إليهم فيما سبق نظرية اشتقاق البلاطة الوسطى من الكنائس البازيليكية على أسباب افتراضية وعلى ادعاءات لا تستند إطلاقا إلى الدين أو التاريخ أو الآثار. وقد فندت البعض من هذه الادعاءات من قبل، وسأفند ما تبقى منها فى الصفحات التالية. وقد استبعد (سوفاجيه) آراء هؤلاء المستشرقين ونقضها، ولكنه طلع بنظرية جديدة، مؤداها أن البلاطة الوسطى مشتقة من قاعات الاستقبال فى القصور الرومانية، وأن أول مثل لها قد أدخل على المسجد النبوى فى المدينة عند زيادة الوليد له فى سنة ٩١هـ / ٧٠٩م، وأن هذه البلاطة اتخذت بعد ذلك أنموذجا اتبع فى تخطيط المساجد السورية، وأصبحت البلاطة الوسطى إحدى خصائص هذه المساجد[٣].

وأقام (سوفاجيه) نظريته على افتراض أن بلاطة المحراب فى المسجد النبوى كانت هى «المقصورة» التى أشار إليها المؤرخون العرب[٤]، واعتمد فى ذلك على ما ذكره ابن رسته من أنه

---

(١) انظر الأشكال ٨٢ و ٨٤ و ٨٩ من «المدخل».

(٢) البلاذرى (الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، المتوفى سنة ٢٧٩هـ / ٩٨٢م، كتاب «فتوح البلدان». طبع ليدن، سنة ١٨٦٦م. صفحة ٣٤٧.

(٣) انظر الصفحات من ٨٣ إلى ١٥٠ وخاصة صفحتا ١٠٨ و ١٢١ من كتاب (سوفاجيه). «المسجد الأموى بالمدينة»:

Sauvaget. Jean, *La Masquée Omeyyade de Médine*, Paris, 1947.

(٤) انظر المرجع السابق، صفحة ٨٤.

«لما قدم الوليد المدينة حاجًّا بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف فى المسجد وينظر إلى بنائه، فقال لعمر بن عبد العزيز حين رأى سقف المقصورة ألا عملت السقف كله مثل هذا، قال إذاً كان تعظم النفقة جدًّا يا أمير المؤمنين، قال وإن»[(١)]. وروى السمهودى عن ابن زبالة المهدى هدم تلك المقصورة وكانت حينئذ «مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد، فأوطأها مع المسجد»[(٢)]. وقد ظن (سوفاجيه) أن المقصود بذلك هو سقف المقصورة. ويعتمد (سوفاجيه) كذلك على ما ذكره ابن جبير فى وصف المسجد النبوى وقوله «إن البلاط المتصل بالقبلة من البلاطات الخمس المذكورة (فى بيت الصلاة) تحف به مقصورة تكتنفه طولاً من غرب إلى شرق والمحراب فيها»[(٣)]. وقد ظن (سوفاجيه) أن المقصود بهذا البلاط وهذه المقصورة هو البلاطة الوسطى. واستند (سوفاجيه) أخيرًا إلى نص نقله الطبرى وفيه «رأيت الوليد يخطب على منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة عام حج قد صف له جنده صفين من المنبر إلى جدار مؤخر المسجد...»[(٤)].

وهكذا اختلق (سوفاجيه) من «المقصورة» فى المسجد النبوى بلاطة وسطى، وجعلها أنموذجا اتبع فى المساجد الجامعة، وشبهها بقاعات الاستقبال فى القصور الرومانية، وجعل لها وظيفة مماثلة، هى استقبال الملوك والحكام فى الحفلات الرسمية، وادعى أن هذه المقصورة أو البلاطة الوسطى، أو قاعة الاستقبال، كانت تترك خالية فى غير الحفلات الرسمية فلا يصطف فيها المصلون، أو غير المصلين. وادعى أخيرًا أنه مما يؤيد نظريته هذه أن لفظ «البهو» كان يطلق أول الأمر على «المقصورة» أو البلاطة الوسطى، وأن معنى هذا اللفظ أخذ «ينكمش» حتى أطلق على نهاية البلاطة[(٥)]. وجسّم (سوفاجيه) هذه النظرية فى صورة تخيلها ورسمها للمسجد النبوى ومقصورته، شكل (١٨)[(٦)].

---

(١) انظر صفحة ٧١ من «كتاب الأعلاق النفيسة» لمؤلفه ابن رسته (أحمد بن عمر أبى على، المشهور بابن رسته والمتوفى سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣م، (الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية المطبوعة بإشراف ده جوخه)، ليدن، ١٨٩١م. وجاءت هذه الرواية كذلك فى صفحة ١٤٠ من «خلاصة الوفى بأخبار دار المصطفى» لمؤلفه السمهودى (نور الدين على بن أحمد، المتوفى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٦م دار الطباعة بمصر، ١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م.

(٢) انظر السمهودى، «خلاصة الوفى»، صفحة ١٤٣ وكذلك صفحتا ٣٦٣ و ٣٨٢ من الجزء الأول من كتابه «وفاء الوفى بأخبار دار المصطفى» جزءان، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة، سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م.

(٣) انظر صفحة ١٧٨ من «رحلة» ابن جبير (المتوفى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م، نشر الدكتور حسين نصار، مكتبة مصر ١٩٥٥م.

(٤) انظر صفحة ١٢٣٣ من الجزء الثانى من كتاب «تاريخ الرسل والملوك» لمؤلفه الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير، المتوفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م، ١١ جزءًا، طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة، سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٠٨م.

(٥) انظر صفحات ٨٤ و ١٥٣ من كتاب (سوفاجيه). «المسجد الأموى بالمدينة».

(٦) انظر شكل (١١)، صفحة ١٢٤ من المرجع السابق.

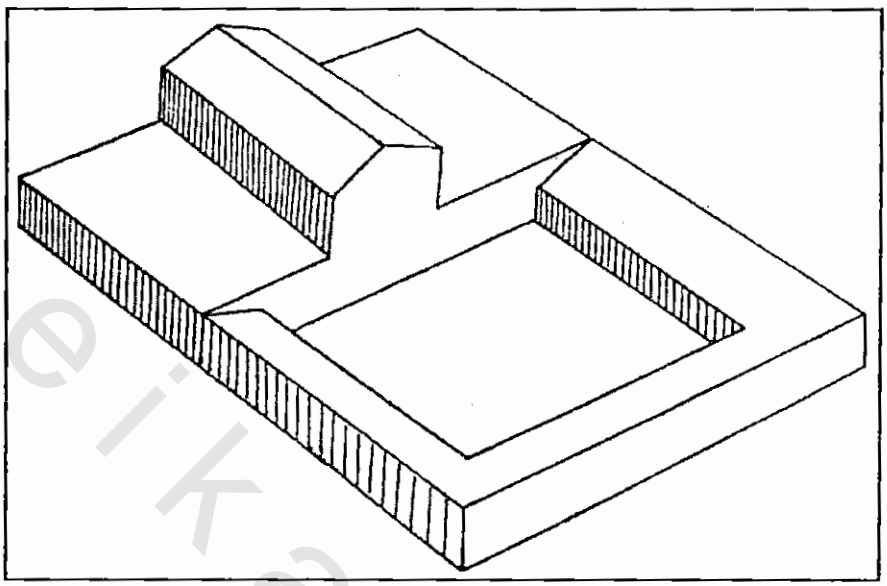

شكل (١٨) – رسم منظور خيالى لمقصورة الوليد فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة (عن سوفاجيه)

وتفنيد نظرية (سوفاجيه) لا يتطلب مجهودًا كبيرًا، إذ إنها قامت على إساءة فهم النصوص العربية وتحوير معانيها. والقول بأن المقصود من لفظ «المتصورة» هو الممر الممتد أمام المحراب إلى صحن المسجد، أو بلاطة المحراب، قول يخالف المألوف من معنى «المقصورة»، والمفهوم المتوارد على مدى الأجيال. وإن كان الرواة اختلفوا فيمن استحدث المقصورة بالمسجد، أهو عثمان بن عفان أم معاوية بن أبى سفيان أم مروان بن الحكم، فإن المتفق عليه بينهم أنها كانت سياجا وحظيرة بجوار المحراب، أو حاجزا يفصل بين الحاكم أو الوالى وبين عامة المصلين. وهى على كل حال «نوع من الأثاث الملحق بالبناء، فلا تدخل فى تخطيط المسجد»[(١)].

ولعله قد خفى عن (سوفاجيه) أن بمسجد القيروان الجامع مقصورة خشبية كان المعز بن باديس أقامها حوالى سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م، وأنها مازالت قائمة إلى اليوم بجوار المنبر، تجاور المحراب ولا تتصدره[(٢)]. أو لعله قد خفى كذلك عن (سوفاجيه) ذلك الوصف الذى نقله «المقرى» عن المقصورة

(١) انظر صفحة ٢٧٩ من «المدخل».

(٢) انظر «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف، صفحة ١٥؛ وتراجع صورة المقصورة فى لوحة ١٩ من كتاب (كونيل)، «الفن المغربى».

Erast Küknel, Maurische Kunst. Berlin, 1924.

البديعة التى أقامها الخليفة المستنصر بالله سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م بمسجد قرطبة، والتى بالرغم من أنها اندثرت، مازالت مواضعها ظاهرة واضحة حتى اليوم فى أسكوب المحراب بالمسجد. وهذه المواضع شبيهة بوصف «ابن جبير» لأوضاع مقصورة الوليد فى المسجد النبوى. إذ كانت مقصورة قرطبة تمتد حول المحراب وتحتل خمسة مربعات من أسكوبه، أو على حد قول المؤرخين، «خمسة أبلطة»، يقصدون بذلك تقاطع هذه «الأبلطة» مع أسكوب المحراب. وكانت هذه المقصورة حظيرة خشبية «منقوشة الظاهر والباطن، طولها ٧٥ ذراعًا وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة» ٢٢ ذراعًا وارتفاعها فى السماء إلى حد شرفاتها ثمانية أذرع وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار»، أى إنها كانت تصل إلى حدود أرجل العقود فى بيت الصلاة، وكان فوق شرفاتها فضاء يبلغ أحد عشر ذراعًا إلى حدود السقف[(١)].

ولنعد إلى النصوص التى اعتمد عليها (سوفاجيه). أما نص ابن رسته. فلا يستدل منه إطلاقا على أن المقصورة كانت شبه قاعة ممتدة أمام المحراب إلى بهو المسجد، ولا يفهم من رواية ابن رسته غير أنه كان للمقصورة التى بناها عمر بن عبد العزيز فى المسجد النبوى سقف بديع المظهر عظيم النفقة. وأما الرواية التى نقلها السمهودى فلم يقصد منها أن سقف المقصورة كان مرتفعًا عن سقف المسجد بل إن نص الرواية صريح فى أن الذى كان مرتفعًا هو أرضية المقصورة. «فأوطأها» المهدى إلى «مستوى المسجد» وقد ذكر السمهودى صراحة فى موضع آخر من كتابه أن المقصورة كانت «فى زمن عمر بن عبد العزيز مرتفعة عن أرض المسجد»[(٢)]. ومع ذلك فإنه سواء كان سقف المقصورة هو الذى كان مرتفعًا أم أرضيتها، وهذا يختلف تمامًا عن تفسير (سوفاجيه) لهذه النصوص، فليس فى رواية السمهودى أية دلالة على موضع المقصورة أو امتدادها من أمام المحراب إلى بهو المسجد.

وأما نص ابن جبير، الذى اعتمد عليه (سوفاجيه) فالواضح منه أنه يقصد به أسكوب المحراب لا بلاطة المحراب. إذ إن ابن جبير يحدد المقصورة التى شاهدها بأنها تكتنف (البلاط) المتصل بالقبلة «طولا من غرب إلى شرق»[(٣)]. والطول المتصل بالقبلة من الغرب إلى الشرق فى المسجد النبوى، هو طول جدار القبلة نفسه، وبالتالى أسكوب المحراب. أما بلاطة المحراب فإنها تمتد طولا من الجنوب إلى الشمال[(٤)]، وهذا يختلف كذلك تمامًا عن تفسير (سوفاجيه) لنص ابن جبير. وإذا كان بعض الرحالة

---

(١) انظر صفحة ٢٦١ من الجزء الأول من كتاب المقرى (أحمد بن محمد، المتوفى سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣٣م، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، ٤ أجزاء، طبع بولاق، (سنة) ١٨٦٢م.

(٢) انظر صفحة ٣٦٣ من الجزء الأول من «وفاء الوفى بأخبار دار المصطفى» للسمهودى.

(٣) انظر ابن جبير، «رحلة»، صفحة ١٧٨.

(٤) ويلاحظ أن ابن جبير وصف مسجد دمشق فى صفحات ٢٥١ إلى ٢٦١ من المرجع السابق. ومع أن البلاطة الوسطى فى هذا المسجد مشهورة باتساعها عن بقية بلاطات المسجد اتساعًا ملحوظًا، فإن ابن جبير لم يعر اهتمامًا =

والمؤرخين العرب قد استخدموا أحيانا لفظ البلاطة للدلالة على الأسكوب، فإنهم كانوا يحرصون دائماً على تحديد الاتجاهات لإيضاح المراد من اللفظ، وقد خفى هذا الإيضاح على (سوفاجيه).

يتبقى النص الذى أورده الطبرى وفسره (سوفاجيه) على أن جند الوليد كانوا مصطفين على جانبى بلاطة المحراب، أوالمقصورة، من المنبر إلى صحن المسجد، مما جعله يشبهها بقاعة الاستقبال والحفلات الرسمية فى القصور. غير أنه يستدل من رواية الطبرى أن اصطفاف الجند كان مقصوراً من جهة على الممر الممتد أمام المنبر فى بيت الصلاة، وهو ممر يجتاز ثلاثة أساكيب فقط ولا يبدأ من جدار القبلة كما أنه لا يقع فى البلاطة الوسطى[1]. ثم إن الصفين من الجند كانا ممتدين من جهة أخرى «إلى جدار مؤخر المسجد»؛ أى إنهم كانوا مصطفين كذلك فى الصحن. وليس فى هذا النص ولا فى النصوص الأخرى التى أشار إليها (سوفاجيه) دلالة صريحة، أو مجازية، على أن المقصورة فى المسجد النبوى كانت بلاطته الوسطى، أو أن هذه البلاطة الوسطى كانت مخصصة للحفلات الرسمية، دون الصلاة، أو أنها كانت تتميز فى ذلك عن بقية بلاطات بيت الصلاة وأساكيبه.

ولعل أقدم مثل معروف لمسجد اتسعت فيه بلاطة المحراب هو المسجد الأموى بدمشق الذى أقامه الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٧هـ / ٧٠٦م. والمعروف أنه كانت تعلو هذه البلاطة فى ذلك العهد ثلاث قباب «قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما»[2]. وأغلب الظن أن المهدى كان قد وسع بلاطة المحراب فى المسجد الأقصى كذلك فى سنة ١٦٣هـ / ٧٨٠م، غير أن أعمال المهدى فى هذا المسجد مازالت محل جدال، وقد لا يصح اتخاذ بلاطة المحراب فى المسجد الأقصى مثلا أصيلاً لا تساع هذه البلاطة فى عظم بيوت الصلاة[3].

والذى لاشك فيه أن بلاطة المحراب الحالية فى مسجد القيروان، وقد أقيمت فى سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م، هى أقدم الأمثلة المعروفة ثابتة التاريخ لاتساع بلاطة المحراب[4]. والمعروف أن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أجرى فى تلك السنة إصلاحات هامة فى مسجد القيروان، وأراد أن يخلد ذكراه فى هذا المسجد فأقام محرابًا بديعًا من الرخام الأبيض المخرم المنقوش، وأقام عليه قبة عجيبة باهرة. وكان لابد لإقامة هذه القبة أن تكون لها قاعدة مربعة، وكان أسكوب المحراب متسعًا، ولم تكن بلاطة المحراب كذلك، فأمر

= لهذا الاتساع، ولم يشر إليه، بل انصب اهتمامه على القباب الثلاث وعلى سموها فى الهواء. وهذا وحده دلالة كافية على أنه لم يكن لبلاطة المحراب فى بيوت الصلاة فى المساجد أهمية خاصة تفوق بقية البلاطات أو الأساكيب.

(١) انظر شكلا ٨١ و ٨٢، من «المدخل».

(٢) انظر شكل (٩٠) من «المدخل».

(٣) انظر من «المدخل».

(٤) انظر شكل (٨٧)، «من المدخل».

بهدم صف الأعمدة المواجهة للمحراب العتيق، محراب عقبة بن نافع، وجعل من البلاطتين المقابلتين له بلاطة واحدة متسعة. وأقام قبته على تقاطع هذه البلاطة الجديدة بأسكوب المحراب. ومازالت الأعمدة المتطرفة لهاتين البلاطتين العتيقتين قائمة إلى اليوم، تقل ارتفاعا وتختلف تنسيقا عن الأعمدة الجديدة التى أقيمت فى عهد زيادة الله على جانبى بلاطة المحراب[1] المستحدثة[2].

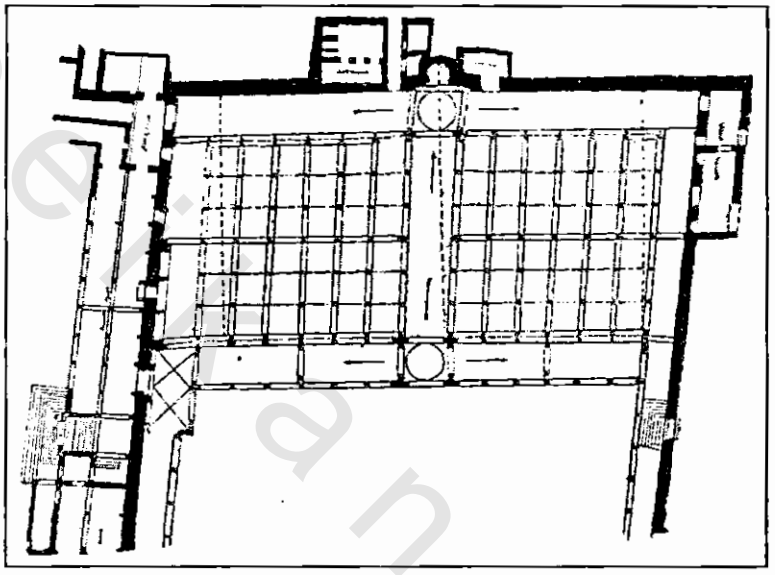

شكل (١٩) — رسم تخطيطى لبيت الصلاة فى مسجد الزيتونة الجامع (رفع المؤلف ورسمه)

---

(١) انظر «المدخل»، وكذلك صفحات ٢٤ إلى ٢٦ من «المسجد الجامع بالقيروان» للمؤلف.

(٢) لم يستطع (كريسويل) أن ينكر هذه الحقيقة، واعترف فى صفحة ٢٢١ من الجزء الثانى من كتابه «العمارة الإسلامية الأولى» وصفحة ٢٥٧ من كتاب «مختصر العمارة الإسلامية الأولى»، بأن بلاطة المحراب المتسعة أضيفت بعد بناء المسجد وأن الأعمدة والعقود التى تلاصقها يمينًا ويسارًا تنتمى إلى عصر سابق لها، وكتب ما نصه:

"one is inevitably forced to conclude that the inner arcade is a lining added to a pre-existing and slightly wider central aisle at a later date".

وإذا كان (كريسويل) قد ادعى أن بيت صلاة القيروان كان به من قبل بلاطة محراب أكثر اتساعًا من البلاطة التى أقامها زيادة الله، فإنه لم يقدم برهانًا عليه، ولم يحدث قط أن بلغ اتساع بلاطة المحراب ضعف اتساع البلاطات الأخرى، كما يتصوره (كريسويل)، هذا فضلا عن أن هذا التصميم كان مستحيلاً فى مسجد القيروان من الناحية المعمارية، إذ كيف كانت الأعمدة التى يعترف (كريسويل) بوجودها السابق Pre-existing، وهى أعمدة أقصر ٥٤ سنتيمترًا من أعمدة بلاطة المحراب الحالية، تستطيع أن تحمل عقودًا تزيد فتحاتها مترًا وربع المتر عن فتحات العقود الحالية لهذه البلاطة.

وتلت هذه القبة تاريخاً، قبة المحراب فى مسجد سوسة الذى أقيم فى سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م، ولهذا فإن بلاطة المحراب فى هذا المسجد أكثر سعة من زميلاتها[١]. ثم أقيم مسجد الزيتونة فى تونس سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م، وأقيمت أمام محرابه قبة. وفى هذا المسجد نلقى مثلاً آخر لاتساع بلاطة المحراب شكل (١٩). والواضح من تصميم قاعدة هذه القبة، أنها أقيمت بعد تخطيط المسجد وبنائه، إذ إنها ترسم مربعًا مختلاً غير متساوى الأضلاع. والواضح كذلك أن بلاطة المحراب قد مهدت فى ذلك التاريخ بحيث تتسع مثل اتساع أسكوب المحراب، وتتقبل بناء القبة على تقاطع هذا الأسكوب بتلك البلاطة[٢].

يتضح من هذه الأمثلة التى أوردتها، وهى أقدم أمثلة معروفة فى العمارة الإسلامية لزيادة اتساع بلاطة المحراب عن بقية بلاطات بيت الصلاة، أن السبب فى هذا الاتساع كان يرجع إلى ضرورة معمارية، وهى تمهيد قاعدة مربعة لقبة أقيمت أمام المحراب، على تقاطع أسكوب ببلاطته[٣]. وقد أوضح (بوتى) هذه الحقيقة[٤]، وانتهى فى بحثه المعمارى المدعم بالأمثلة إلى أن القبة عامل رئيسى يتدخل حتما فى تعديل نظام بيت الصلاة، وأن قاعدتها المربعة تستوجب تساوى ضلوع هذه القاعدة مع الاحتفاظ بتناسق أقسام هذا البيت. وأكد هذا العالم الأثرى أن نظام المساجد بصفة عامة، واتساع أسكوب المحراب وبلاطته فيه، هى نتيجة حلقة ممتدة من التجارب والتقاليد، وهى فى تاريخ العمارة «ابتكارات إسلامية أصيلة»[٥].

أينما وجدت إذن القبة فى بيت الصلاة، فإنها تقع دائما على تقاطع أسكوب وبلاطة متعادلين اتساعا. وتشاهد هذه الحقيقة المعمارية فى مسجد الكُتُبية بمراكش شكل (٢٠)، وفى مسجد تازا

---

(١) انظر شكل (١٠٢) من «المدخل»، ويلاحظ أنه لم يبين فى هذا الشكل مسقط القبة أمام المحراب.

(٢) انظر شكل (١٠٦) من «المدخل»، وصفحتا ٧٢ و ٧٧ من «مسجد الزيتونة الجامع فى تونس» للمؤلف.

(٣) كانت بلاطة المحراب فى مسجد قرطبة الجامع، الذى شيد فى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م، أكثر سعة من جاراتها، وكذلك بلاطة المحراب فى كل من مسجد سامراء، وتاريخه ٢٣٥هـ / ٨٥٠م، ومسجد أبى دلف وتاريخه ٢٤٥هـ / ٨٦٠م، ولكن اتساع هذه البلاطات الثلاثة ضئيل إلى حد أنه لا يلاحظ قط إلا إذا قيست مقاسًا دقيقًا، وقيست بالمثل البلاطات المجاورة لها، ولم يلحظ أحد من المؤرخين أو الرحالة العرب هذا الاتساع، إذ أن زيادة سعة بلاطة المحراب عن بقية البلاطات فى هذه المساجد لا تبلغ أكثر من السدس. تراجع شكل (٩٧) من «المدخل».

(٤) انظر (بوتى)، «تطورشكل التاء فى نظام المساجد»:

Pauty, Edmond, *L'Evolution du dispositif en T dans les Mosquées à portiques*. Bulletin d'Etudes Orientales, Institut Francais de Damas, Tome II, 1932, pp. 91 – 124.

(٥) انظر صفحة ٩٤ من المقال المشار إليه فى الحاشية السابقة، ونص الفقرة هو:

"de création purement musulman".

بالمغرب، شكل (٢١)؛ وفى مسجد تِنمال بالجزائر، شكل (٢٢)، وكذلك الحال فى مسجد حسن بالرباط، شكل (٢٣).

وقد قدم الفاطميون من بلاد المغرب وأنشأوا القاهرة، وجلبوا معهم هذا النظام المغربى، فيما جلبوا من نظم وتقاليد، وأقاموا قبة أمام محراب مسجد الأزهر، أسوة بمساجد القيروان وسوسة والزيتونة، واتسعت لذلك بلاطة المحراب فى الأزهر مثلما اتسعت من قبل فى تلك المساجد. ويظهر الأمر أكثر وضوحا فى مسجد الحاكم، شكل (٢٤)، إذ أقيمت فيه قباب ثلاث[1]، واحدة أمام المحراب، وواحدة على كل طرف من طرفى أسكوبه. وقواعد هذه القباب مربعة، ولهذا اتسعت بلاطة المحراب فى مسجد الحاكم كما اتسع أسكوب المحراب لكى ترقى القبة على تقاطعهما.

كان الأصل إذن فى اتساع بلاطة المحراب هو إعداد قاعدة مربعة للقبة التى تقام أمام المحراب، وأصبحت بذلك عنصرًا جديدًا فى تخطيط المساجد، اتبع فيما بعد أحيانا، كما هو الحال فى مسجد

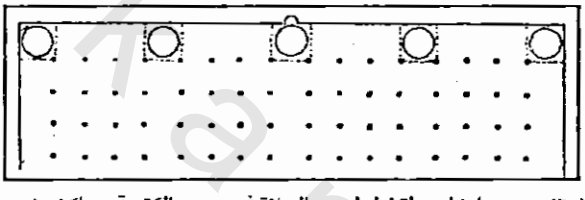

شكل (٢٠) – رسم إيضاحى لتخطيط بيت الصلاة فى مسجد الكتبية بمراكش (عن بوتى)

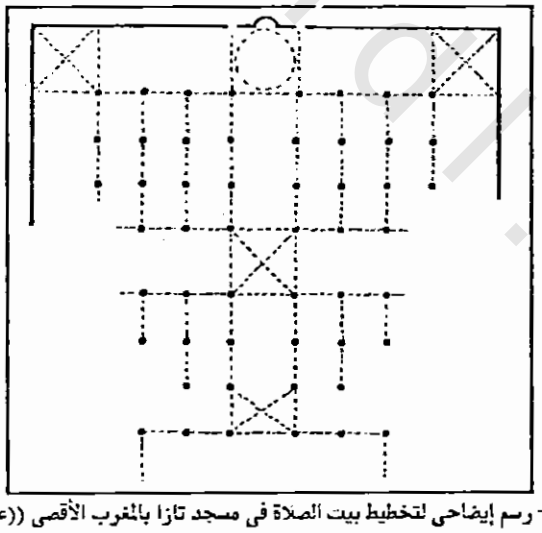

شكل (٢١) – رسم إيضاحى لتخطيط بيت الصلاة فى مسجد تازا بالمغرب الأقصى ((عن بوتى))

(١) وكان بالأزهر أصلاً ثلاث قباب مقامة على أسكوب المحراب.

الصالح طلائع، بالرغم من أنه لم ترفع فيه قبة على تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبه، وكلاهما فى هذا المسجد أكثر سعة من غيرها من الأساكيب والبلاطات[1]. والقول بأن اتساع بلاطة المحراب مظهر فحسب اقتبس من نظام الكنائس البازيليكية، أو قاعات الاستقبال فى القصور الرومانية، هو إدعاء باطل، وانكار للوظيفة المعمارية التى فرضت هذا النظام التخطيطى فى المساجد.

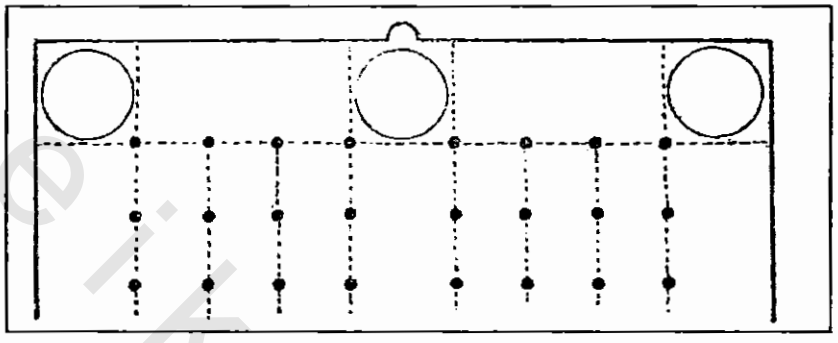

شكل (٢٢) — رسم إيضاحى لتخطيط بيت الصلاة فى مسجد تنمال بالجزائر (عن بوتى)

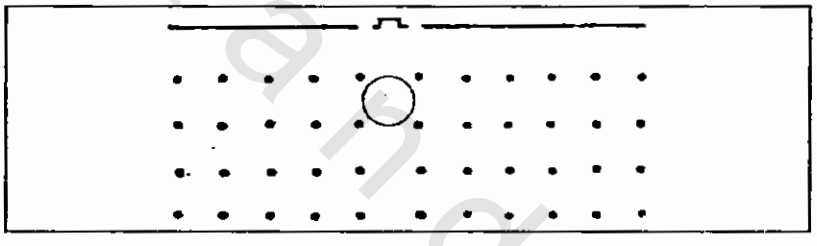

شكل (٢٣) — رسم إيضاحى لتخطيط بيت الصلاة فى مسجد حسن بالرباط (عن بوتى)

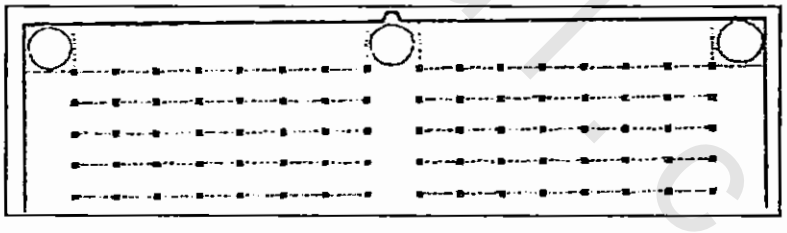

شكل (٢٤) — رسم إيضاحى لتخطيط بيت الصلاة فى مسجد الحاكم بالقاهرة (من رسم المؤلف)

---

(١) ويلاحظ كذلك أنه ليس لبلاطة المحراب نظام خاص فى تخطيط المسجد، فإنه يصح أن تكون هذه البلاطة حقيقية، أى أن تمتد العقود على جانبيها من المحراب إلى الصحن، ويصح أن تكون وهمية. أى تخترقها عقود الأساكيب. فلا تجعل منها فضاء فسيحًا متصلاً، كما هو الحال فى مسجد القرويين بفاس، ويصح أن تكون بلاطة المحراب معادلة اتساعًا مطابقة نظامًا لبلاطات المجاورة لها. كما هو الحال فى مسجد الأقمر، أو أن تكون أكثر اتساعًا منها، كما هو الحال فى مسجد الصالح طلائع.

٢

قبة البهو والعنزة

أحاط الحافظ لدين الله صحن مسجد الأزهر برواق من المجنبات، اقتباسًا من النظام الذى اتبع من قبل فى بعض المساجد المغربية. فقد أضيفت مجنبات إلى الصحن فى مسجد القيروان، فى سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م، ومنها مجنبة لبيت الصلاة من رواقين. وأضيفت إلى مسجد الزيتونة، فى سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م مجنبات للصحن، منها واحدة لبيت الصلاة من رواق واحد. وكانت للأزهر عند إنشائه مجنبتان، واحدة شرقى الصحن والأخرى غربيه. ولم يكتف الحافظ لدين الله بإضافة مجنبة ثالثة لبيت الصلاة فى هذا المسجد، ومجنبة رابعة فى مؤخره، بل إنه أضاف كذلك رواقًا إلى كل من المجنبتين اللتين كانتا قائمتين من قبل، أى إنه أحاط الصحن من جهاته الأربع برواق واحد ممتد، وجعل مظهره متناسقًا فى هذه الجهات. وظهر فى المساجد الفاطمية تبعًا لذلك عنصر جديد ثان، هو قبة البهو، التى ظهرت فى مساجد القاهرة أول ما ظهرت فيما نعرف فى هذا المسجد الأزهر، وكان تاريخها يقع فى عهد هذا الخليفة بين سنتى ٥٢٦هـ و ٥٤٤هـ / ١١٣١م – ١١٤٩م. وقبة البهو هى القبة المقامة فى بلاطة المحراب على نهايتها المطلة على الصحن. وقد رأينا أنه كان بالمسجد الأموى بدمشق قبة شبيهة. ولكن قبة البهو بالصورة التى ظهرت فى مسجد الأزهر تتصل بقبتى البهو فى مسجدى القيروان والزيتونة. فهى تقليد مغربى. ذلك أن قبة المسجد الأموى بدمشق كانت هى إحدى قباب ثلاث تمتطى بلاطة المحراب داخل بيت الصلاة، أما قبة البهو فى كل من المسجدين المغربيين فهى قبة أقيمت على نهاية بلاطة المحراب فى منتصف رواق المجنبة التى أضيفت إلى بيت الصلاة، فى عهد لاحق لإنشاء هذا البيت. وهذا ما حدث تماما فى المسجد الأزهر.

أقيمت قبة البهو فى مسجد القيروان سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م، فى نفس السنة التى أقيمت فيها مجنبات الصحن، والتى أضيف فيها إلى بيت الصلاة أسكوبان أو رواقان من جهة الصحن وكان ذلك بعد إقامة بلاطة المحراب بأربعين سنة. وأقيمت قبة البهو فى مسجد الزيتونة فى سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م فى نفس السنة التى أقيمت فيها مجنبات الصحن[1]، وأضيف فيها إلى بيت الصلاة رواق

(١) سجل تاريخ إنشاء القبة على إطار يدور حول قاعدتها المربعة فوق العقود التى ترتكز عليها وسجل تاريخ بناء المجنبات على حدارات تيجان الأعمدة تحت هذه القبة ونصه حسبما قرأته (بسم الله الرحمن الرحيم كان ابتداء العمل فى المجنبات والناموس والقبة فى شهر ربيع الأول سنة ثمانين وثلثمائة وتم جميع ذلك فى جمادى الأول من سنة خمس وثمانين وثلثمائة)، تراجع صفحة ٦٧ من «مسجد الزيتونة الجامع فى تونس» للمؤلف.

مطل على الصحن بعد إقامة بلاطة المحراب بمائة وثلاثين سنة. ولاشك فى أن هذين المثلين وغيرهما فى مساجد مغربية أخرى اندثرت، هى التى أوحت إلى إدخال هذا العنصر الجديد على نظام المسجد، وهو قبة البهو.

وقبة البهو، فى رأيى، هى قبة مكررة لقبة المحراب بالنسبة للمصلين فى صحن المسجد، «فقد دعت الحاجة أمام اكتظاظ المساجد فى أيام الجمعة أن يقف عند هذا الصحن، وفى موضع يقابل المحراب منه، إمام ثان، أو مؤذن، يردد ابتهالات خطيب المسجد وتكبيره، ومازالت هذه العادة متبعة (فى بلاد المغرب) إلى اليوم»[1]، ولهذا أعد محرابان صغيران، تحت قبة البهو فى مسجد الأزهر، وضع كل واحد منهما فى دعامة من الدعامتين المتصلتين ببلاطة المحراب.

وهذه المحاريب عنصر جديد آخر ظهر فى المساجد الفاطمية، يشاهد كذلك فى مسجد السيدة رقية، ويطلق عليه فى بلاد المغرب اسم «العَنَزَة». وهو اصطلاح يقصد به المحراب الرمزى الذى يقام فى الصحن عند نهاية بلاطة المحراب. «والعنزة هو الحربة أو اللواء الذى يركزه شيخ القبيلة فى الصحراء قبل قيام الأعراب للصلاة، ليحدد موضع المحراب من الفضاء ومقام الإمام من المصلين»[2]. والمعروف أن هذه العادة كانت متبعة منذ عهد الرسول ﷺ[3]، وكانت العنزة تتخذ عند الحاجة بديلاً عن المحراب.

□□□

(١) انظر صفحة ٨٨ من المرجع السابق.

(٢) انظر صفحة ٨٩ من المرجع السابق.

(٣) البخارى، «كتاب الجامع الصحيح»، جزء أول، صفحة ١٠٦. وقيل إن بلالاً كان يحمل العنزة أمام الرسول ﷺ إلى المصلى فى العيدين فيركزها فى الأرض ويحدد بها القبلة والسترة. انظر صفحة ١٦٤ من مقال (مايلز)، «المحراب والعنزة»:

Miles (George), *Mihrab and Anazah*. A study in Farly Islamic Iconograhy, pp. 156-171 in *Archaeologica Orienlaia* in Memoriam Ernst Herzeld, New York, 1952.

(٣)

المداخل الرئيسية والبوابات - المشاهد - تعدد المحاريب

يمتاز تخطيط المساجد الفاطمية بموضع مداخلها الرئيسية، فقد فتحت هذه المداخل فى منتصف جدار المؤخر، فى موضع يقابل المحراب. وكانت مداخل المساجد فيما قبل ذلك تفتح عادة فى الجدارين الجانبيين، غير جدارى القبلة والمؤخر، أو على الأصح لم تكن الأبواب التى تفتح فى جدار المؤخر تمتاز عن غيرها من الأبواب. ولم تتخذ صفة الصدارة. أما فى العصر الفاطمى فقد كان المدخل الرئيسى للمساجد، فى الأزهر والحاكم والجيوشى والأقمر والسيدة رقية والصالح طلائع هو المدخل المفتوح فى جدار مؤخر كل منها، مقابلا للمحراب فى بيوت صلاتها.

وفضلا عن ذلك فإن هذا المدخل اتخذ أهمية خاصة فى ثلاثة من هذه المساجد هى الحاكم والجيوشى والأقمر، وذلك ببروزه خارج سمت جدار المؤخر، أى مسقطه[(١)]. ويبدو هذا البروز واضحًا فى مسجد الحاكم، إذ إنه يتخذ هيئة برجين، يتوسطهما ممر يؤدى إلى باب، فأصبح المدخل بوابة، بالمعنى المصطلح عليه فى عمارة الأسوار. ولاشك فى أن نظام هذين البرجين، كما سنرى فى الفصل التالى، مقتبس من بوابة مسجد المهدية فى تونس. وهو مسجد فاطمى أقيم فى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٦م. ولكن هذه البوابة تطورت فى مسجد الحاكم واتخذت مظهرًا أكثر جلالاً وعظمة. ثم انكمش البرجان فى مدخل مسجد الأقمر ليتناسق مظهرهما مع واجهة هذا المسجد، ولكنه يظهر فيهما كذلك ذكرى أبراج المهدية، إذ حفرت فيهما طاقة من كل جانب على هيئة المحراب، ومثل هذه الطاقات تتكرر فى بوابة المهدية.

أما مدخل الصالح طلائع فقد اتخذ أهميته الخاصة من الرواق الذى يتقدمه، وهو الصحن المسقوف المطل على الشارع. وإنى أعتقد أن هذا الصحن قد أعد خصيصًا لاستخدامه صحنا للجنائز. وصحن الجنائز تقليد مغربى كذلك، ولعله اقتبس فى مسجد الصالح طلائع من مسجد من مساجد المغرب[(٢)]. وعلى كل حال فإنى أرى فى صحن الصالح طلائع صورة مكبرة للرواق الذى يتقدم بيت الصلاة فى مسجد بوقتاته فى سوسة[(٣)].

---

(١) وأغلب الظن أنه كان بمسجد الأزهر كذلك عند إنشائه بوابة مفتوحة فى جدار المؤخر.

(٢) لمسجد الزيتونة صحن مسقوف للجنائز. وإن كان تاريخه لاحقًا لتاريخ الصالح طلائع، إذ أنه أنشىء فى سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م.

(٣) انظر شكل (١٠٤)، من «المدخل».

وظهرت فى العصر الفاطمى كذلك أنظمة جديدة للمساجد لم تصل إلينا نظائر لها من العصور السابقة، وهى نظام المسجد ذى الضريح، أو نظام المشهد. ولا شك فى أن المشاهد والأضرحة كانت تقام منذ العصور الإسلامية الأولى. وقد تخلفت من العصر الفاطمى نفسه مبان مقصورة على أضرحة، منها قبة الشيخ يونس، ومشهد إخوة يوسف. وقبتا عاتكة والجعفرى، ومشاهد أم كلثوم، والحصواتى ويحيى الشبيه. وقد سبق أن أشرت إليها إشارة موجزة. ولكن مسجدى الجيوشى والسيدة رقية مثلان فريدان للمشهد، أو للمسجد المستخدم ضريحا، ويتضح من تخطيطهما أنهما يحتفظان بجميع العناصر التخطيطية للمسجد، إذ إن بكل منهما بيتاً للصلاة به محراب يتوسط جدار القبلة، وإن كان هذا البيت يقتصر على أسكوبين، فى الجيوشى، وعلى أسكوب واحد، فى السيدة رقية. وبكل منهما صحن، كان يدور حوله رواق فى السيدة رقية، واستبدلت به فى الجيوشى قاعات مغلقة. ويمتاز كل من المسجدين بالقبة المقامة أمام المحراب، فوق الضريح الذى وضع مواجها له. والمسجدان صغيران لا تزيد مساحة كل منهما عن ٢٥٠ مترا مربعا، أى إن مساحة مسجد ابن طولون تتسع لبناء أكثر من ستين مشهداً من حجمهما.

وقيل: إن مسجد الصالح طلائع كان معداً لكى يوضع فيه ضريح السيد الحسين، ولكن نظام هذا المسجد لا يشبه مشهدى الجيوشى والسيدة رقية، بل إنه يخلو من القبة، وهى العنصر الرئيسى فى بناء المشهد. وأغلب الظن أن إحدى القاعات المجاورة للصحن المسقوف فى مسجد الصالح طلائع كانت معدة لإيواء الضريح.

وتمتاز المساجد الفاطمية بتعدد المحاريب. وهى ظاهرة لوحظت من قبل فى مسجدى عمرو وابن طولون، غير أنها أدخلت على مسجد عمرو بعد زيادته، احتفاظاً بموضع محراب مؤسسه. وأدخلت على مسجد ابن طولون فى العصر الفاطمى وفى عصر لاجين. وهى فى هذا المسجد الأخير محاريب مسطحة. وقد أشرت فيما سبق إلى محرابى قبة البهو فى مسجد الأزهر، وإلى محرابى رواق الصحن فى السيدة رقية. غير أن ظاهرة تعدد المحاريب التى أشير إليها هنا تتصل بالمحاريب المجوفة فى جدار القبلة، أى فى بيت الصلاة، وهى ظاهرة زخرفية، ولم أستدل على حكمة لها. وأقدم مثل معروف لتعدد المحاريب فى جدار القبلة هو مسجد دير سانت كاترين، وفيه ثلاثة محاريب، واحد فى كل مربعة من مربعات أسكوب المحراب الثلاثة، وقد أنشأ هذا المسجد الأمير أبو منصور أنوتشتكين فيما بين سنتى ٤٢٩هـ و ٤٣٣هـ / ١٠٣٧م – ١٠٤١م حينما كان نائبًا على الشام من قبل الخليفة المستنصر بالله[1]. وبعد ذلك بمائة سنة أقيم مسجد السيدة رقية، وبجدار القبلة فيه ثلاثة

(١) يعد المؤلف بحثًا عن هذا المسجد الذى كان يظن أنه بنى فى عهد الآمر بأحكام الله، فى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م، وهو تاريخ صنع المنبر المحفوظ بمسجد الدير، أما تاريخ إنشاء المسجد نفسه فصحته ما أوردته أعلاه.

محاريب، واحد فى كل مربعة من مربعات أسكوب المحراب الثلاثة. وتخلف من العصر الفاطمى كذلك ثلاثة مشاهد، بكل منها ثلاثة محاريب مجوفة فى جدار القبلة، هى مشاهد أخوة يوسف ويحيى الشبيه وأم كلثوم، وجميعها معاصر تاريخاً لمسجد السيدة رقية.

□□□

obeikandl.com